العَودَة إلى الدّيموقراطيّة ...

محمد زنيبر

دور المثقف في المجتمع واضح، لكنه محدود. ونستطيع أن نؤكّد، دون الخوف من المبالغة، أن المثقفين العرب أو على الاقل، أن الواعين منهم، وهم كثير، حاولوا أن يقوموا بدورهم في توعية الأمة العربية، في تنبيه الحكام العرب وتحذيرهم من عواقب السياسة التي يتبعونها، وما فتئوا يقترحون عليهم البدائل لها. وما فتئوا في أبحاثهم ومقالاتهم يحللون الاسباب الذاتية والموضوعية التي تجعل المعسكر العربي دائماً في موقف المغلوب والمنهزم. وما أكثر المجلات التي صدرت في السنين الأخيرة والتي تهتم بالموضوعات الجادة في العالم العربي فتكشف عن كل العيوب والأخطاء وتتناول كل القضايا الشائكة في مجتمعاتنا!

نستطيع أن نقول، اذن، إن المثقف العربي لم يبق ذلك العضو المدلل في المجتمع الذي يعيش في برجه العاجي وينشد السعادة في الاحلام والهروب من الواقع. انه، مهما اختلف انتماؤه المذهبي، يشعر بواجبه ويحاول ان يؤدّيه، وبالخصوص تجاه القضية الفلسطينية ومجابهة الصهيونية. فالمثقفون العرب، مهما تباعدت نزعاتهم الفكرية والسياسية، لهم الموقف نفسه، وأكاد أقول التفكير نفسه تجاه تلك القضية.

ولكن، ما الحيلة اذا كان المثقفون العرب يصيحون في واد؟!

طبعاً هنالك «ثقافة» مبنية على المداهنة والتملق، وهنالك «مثقفون» مرتزقة. وأنا لا أتحدث عن هؤلاء ولا عن «ثقافتهم»، لأن الثقافة الصميمة تتناقض مع الارتزاق والتملق والمداهنة. ولكنني أتحدث عن المثقفين الذين ينطلقون من ضمائرهم الحية فأؤكد انهم طالما رفعوا عقيرتهم، وطالما نصحوا واقترحوا وعقدوا الندوات والمؤتمرات!

ولكن للثقافة حدودها التي لا تتجاوزها. فإذا كان الى جنب المفكر رجل العمل الذي يتعاون معه في تفاهم وانسجام، تتحول الثقافة من أفكار ومُثل الى واقع ملموس. وهذا هو الذي أعوزنا في الماضي وما زال يعوزنا الى الآن. فرجل العمل عندنا هو الحاكم، هو السياسي، هو رجل الدولة. والمؤسف هو أنه في مجتمعاتنا يجهل المثقف أو يحتقره. ولعل ذلك إرث من الماضي حيث كان الخلفاء والامراء والحكام ينظرون، في الغالب، الى المثقف على أنه رجل يصلح للأنس، للمنادمة، لكتابة الرسائل، ولكن قلما يعتمد عليه في التدبير، في الاضطلاع بالمسؤ وليات الكبرى. والمتنبي، أكبر شعراء العرب حاول مع حكام العرب الذين تقرّب اليهم بشعره أن ينال منصباً أو ولاية، فكلّهم منوه وضحكوا عليه ولم يسعفوا طلبه.

فالحاكم في مجتمعاتنا ينتظر من المثقف ان يمجده وأن يصفق له وأن يمشي في ركابه. فإذا بدرت منه كلمة حق في التنبيه والنقد ينظر اليه شزراً، ويصنّف من الاعداء، وممن لهم العقوبة بالمرصاد. ولربما أو ذي في معاشه وسلب من حقوقه.

ولذلك، فأنا لست أتردد في القول بأن المسؤ ولية فيما حدث ويحدث بالعالم العربي لا تقع على المثقفين، وانما على السياسيين ورجال الحل والعقد،

حسب الاصطلاح التقليدي. واصلاح هذا الوضع يكمن في تغيير عقلية السياسي والحاكم العربي حتى يتجرد من انانيته وكبريائه، ويتحلى بما يكفي من التواضع ليستمع للمثقف ويقدر رأيه. فاذا أخذ الحاكم بهذا الموقف، بالفعل، فسيكون ذلك حدثاً كبيراً جداً في مجتمعنا، جدير بأن يؤرخ، لأن فيه برهاناً ضمنياً على أنه أصبح يعترف بشيء اسمه حرية الفكر ومن ورائها القيم الديموقراطية.

وحينما نذكر كلمة الديموقراطية، فإننا نمس بأكبر شيء ينقص مجتمعاتنا وفيه يكمن اصلاحها وانقاذها من التخلف. فالمأساة التي عاشها العرب مؤخراً في لبنان والتي جاءت بعد مآسٍ سابقة لا تعني هزيمة العرب من حيث هم عرب، وانما تعني هزيمة لنوع من التفكير والممارسة مبني على تجاهل الجماهير والاستئثار بالرأي والتدبير. والدواء يكمن في تعبير ذلك بالرجوع الصادق الى الديموقراطية.

والخلاصة من كل ذلك ان الثقافة العربية الجديدة التي يجب أن نعمل على خلقها بعد كل هذه التجارب المريرة يجب أن تتركز على النضال من أجل الديموقراطية، من أجل أن يكون لرأي المواطن صداه الطبيعي، من أجل أن تتلاقح الآراء على اختلافها في الساحة العمومية، فيتولد عن تلاقحها الرأي الجماعي الذي يجب أن يبني عليه الحاكمون خططهم. وكل تخلٍّ، وكل نكوص عن مثل هذا الهدف يحطّ بالثقافة الى مستوى دون مستواها الطبيعي.

سلا (المغرب)

دار الآداب تقدم

علي عقلة عرسان

الأقنعة

مسرحيّة

عراضة الخصوم

مسرحيّة